

القسم الأول

أولا

آراء لغوية غير مقبولة لابن خلدون

أشرنا فيما سبق أن ابن خلدون لا يقيد نظراته وآراءه اللغوية بأصل ترجع إليه، خلافاً لعلماء اللغة الأوائل الذين اعتبروا أن الأصل الذي تُجمع من أجله.. اللغة هو القرآن الكريم. فعل ذلك.. انطلاقاً من رؤيته الواقعية التي تستقرى الأشياء، في كل مجال نَظَرَ فيه، دون أن تربط أيّاً منها بأصل ترجع إليه. فابن خلدون.. أقرب على العلمانيين من هذه الناحية، أو إلى الفلاسفة الوضعيين الذين يدرسون الواقع، ولا يلتفتون إلى ما وراء الواقع (أى - لا يلتفتون إلى عالم الغيب، وما نزل من أقوال من عالم الغيب).

وهذا.. يتبين من النصوص الآتية التي أخذناها من مقدمته، يقول في النص الأول عن اللهجات العاميات.

هل اللهجة لغة قائمة بذاتها؟

١ - فأما أنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر، يشهد له ما فيها من التغاير الذي بَعُدَ عن صناعة أهل النحو، لحنًا، وهي مع ذلك تختلف باختلاف الأمصار في اصطلاحاتهم؛ فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء، للغة أهل المغرب، وكذا أهل الأندلس معهما، وكل منهم

متوصل بلغته إلى تأدية مقصودة والإبانة عما فى نفسه. وهذا معنى اللسان واللغة. وفقدان الإعراب ليس بضائر لهم كما قلناه فى لغة العرب لهذا العهد^(١).

تعليق:

قوله: (فأما أنها لغة قائمة بنفسها) فيقصد لغة العامة فى حواضر البلاد العربية. ثم.. انظر إلى قوله فى آخر النص: وفقدان الإعراب ليس بضائر لهم (كما قلناه فى لغة العرب لهذا العهد). فهذا كلام لا يقوله من له (مرجعية) يُعيد لها الأشياء ويدرسها فى ضوءها. لأن أهمية الفصحى.. ليست لأنها أعلى فصاحة من العاميات، فحسب، (لأن الحركات الإعرابية تمنحها من القدرة على التعبير عن المعانى، ومن أحوال المعانى، ما لا يكون فى العاميات التى سقطت منها حركات الإعراب - كما نفضل هذا لاحقاً)، بل لأنها لغة القرآن الكريم، هذه اللغة التى يعتبر تعلمها. عبادةً أو من الدين.

هل يمكن الاعتياض عن الحركات - من دون خلل يصيب اللغة؟

٢ - ويقول فى النص الثانى: (ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربى لهذا العهد واستقرينا أحكامه. نعتاض عن الحركات الإعرابية التى فسدت فى دلالتها بأمر أخرى وكيفيات موجودة فيه، فتكون لها قوانين تخصها، ولعلها تكون فى أواخره على غير المنهاج الأول فى لغة مضر، فليست اللغات وملكاتهما مجاناً)^(٢).

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، ١٠٧٨-١٠٨٠.

(٢) المصدر نفسه، ١٠٧٣ - ١٠٧٨، وانظر، من المقدمة، ١٠٨١-١١٨٤، فابن خلدون يرى أن ملكة اللغة مستغنية عن صناعة الإعراب بالجملة، ولكن هذا.. صحيح قبل أن=

تعليق:

- ومن النقل السابق ترى أن ابن خلدون يرى أن اللغة في عصره، قد سقطت منها الحركات التي كانت قائمة، في لغة مضر (وهي لغة أهل مكة المكرمة، وما حولها من القبائل)، وأنها.. (= اللغة في عصره) يمكن أن تستغنى عن الحركات بأوضاع، وهيئات، وتقديم وتأخير، وإصاق بعض الحروف بكلمات لم تكن تلتصق بها - وعندئذ تضحى لغة معبرة عن المعاني، فليست اللغة - عنده - إلا أداة لإظهار ما في الفكر والنفس. ولذا.. فكل لغة قادرة على الإفصاح عما في الفكر والنفس.. هي مقبولة عنده، بغض النظر عن أن لها صلة بلغة مضر، أو أنها ليس لها بها صلة-!.

- وهذا رأى لا نقره عليه. لأنه رأى لا يختلف شيئاً عن آراء الذين يدعون - اليوم - إلى العامية وإن اقتراحاته لأن تستوى العاميات.. لغاتٍ معبرةً هي كاقتراحاتهم.. اللهم إلا أن دعاة اليوم يدعون أن العاميات أقرب إلى التعبير المستوفى لما في العقل والنفس من الفصحى؛ لأنها (أى العاميات) عندهم أقرب إلى ذوق الناس، والتعبير عن معاشتهم لحياتهم اليومية.

- بلى.. لا نقره عليه...

=تفسد السليقة، كما فسدت في أيامه، أما بعد فسادها.. فلا بد من الجمع بين قراءة النصوص الفصيحة، وتدبرها، وبين تعلم صناعة الإعراب، ولا أقول: تعلم الصرف، لأنه فطرى، في كيان الإنسان، فلا حاجة لتعليمه - تعلم حفظ، أو.. تذكر، وإنما يكفى الإطلاع عليه. وقريب من الصرف: (= بنية) الكلمات، والتراكيب، فلا يحتاج تعلمها إلى أكثر من قراءة النصوص الفصحى، [انظر: تفصيل ذلك في كتابي (رؤى نحوية، وصرفية - تجديدية)-] ج ٤ / ١٧١ - ٢١٩.

- أولاً.. لأن اللغة الفصحى (لغة مضر) هي لغة فهم القرآن الكريم وتفسيره. والحفاظ عليها هو حفاظ على القرآن الكريم. ولذلك.. فالحفاظ على الفصحى من الدين، والقيام على أمرها عبادة.

- وثانياً.. لأن العاميات.. محدودة الثروة اللغوية، ولذا.. فليست قادرة على التعبير عن مكنونات النفس كالفصحى. والثروة اللغوية كالثروة المادية، فالذى يملك عشرة آلاف دينار، في الشهر، يستطيع أن يشتري ويقتنى أكثر من الذى لا يملك إلا ألفاً. أما ترى أن لغات الأقسام البدائية التى سجلها العلماء المتتبعون لها.. لا تستطيع أن تعبر عن كثير من مكنونات النفس، وعن كثير من المعنويات - كما تعبر اللغات التى تتكلمها الأمم المتحضرة؟ ذاك إلا لقلة ألفاظ اللغات ذات الأقسام البدائية، وكثرة ألفاظ اللغات ذات الأمم المتحضرة.

- وثالثاً.. لأن الفصحى ذات حركات إعرابية، والحركات.. تضيف معنى - غالباً - إلى معنى الكلمات، وهى فى سياق، وهذه الحركات من أسباب الإيجاز الذى يعلو فى العربية الفصحى على الإيجاز فى اللغات الأخرى؛ لأن اللغات الأخرى ليست بذات حركات.

**لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر
ولغة حمير:**

- ويقول ابن خلدون:

(وذلك أنا نجدها فى بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سَنَنِ اللسان المضرى، ولم يفقد منها إلا دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول؛ فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد. إلا أن البيان والبلاغة فى اللسان المضرى أكثر وأعرق،

لأن الألفاظ بأعيانها دالة على المعانى بأعيانها. ويبقى ما تقتضيه الأحوال - ويسمى بساط الحال - محتاجًا إلى ما يدل عليه وكل معنى لا بد^(١) وأن تكتنفه أحوال تخصه، فيجب أن تعتبر تلك الأحوال في تأدية المقصود لأنها صفاته، وتلك الأحوال في جميع الألسن أكثر ما يدل عليها بألفاظ تخصها بالوضع. وأما في اللسان العربى فإنما يدل عليها بأحوال وكيفيات، فى تراكيب الألفاظ وتأليفها. من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة إعراب. وقد يدل عليها بالحروف غير المستقلة، ولذلك تفاوتت طبقات الكلام فى اللسان العربى بحسب تفاوت الدلالة على تلك الكيفيات كما قدمناه، فكان الكلام العربى لذلك أوجز وأقل ألفاظًا وعبارة من جميع الألسن^(٢).

- إنه، هنا، يرى أن الإعراب... له قيمة لا تنكر فى زيادة طبقة البلاغة، فقله السابق: (لأن الألفاظ بأعيانها دالة على المعانى بأعيانها. ويبقى ما تقتضيه الأحوال، ويسمى - بساط الحال - محتاجًا إلى ما يدل عليه... وأما فى اللسان العربى فإنما يدل عليها بأحوال وكيفيات... أو حركة إعراب).
فالإعراب معتبر ذا قيمة - عند ابن خلدون - فى تجلية المعنى.

- فهل هذا.. يتناقض مع كلامه السابق (فى أن اللغات تستغنى عن الإعراب - ومع ذلك.. تكون لها بلاغتها)؟
- الجواب.. لا.

(١) لا بد وأن: الصواب أن يقال: (لا بد أن)، فيحذف - الواو - إذ لا موقع لها هنا، وأرى أن هذا من خطأ النسخ، أو المحققين.
(٢) المقدمة، ١٠٧٣-١٠٧٨، ثم تحت عنوان (علم النحو) يذكر ابن خلدون أهمية النحو مرة أخرى، ١٠٥٦.

- فابن خلدون يرى أن كل اللغات (ومنها - اللهجات العامية) .. لها بلاغتها. بيد أنها «متفاوتة» في البلاغة. ولهذا.. فهو يقول: (ولهذا.. كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية، وأصرحها، لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم^(١))؟

- والقول بأن اللغات كلها.. بليغة (حتى اللهجات العامية) - قول صحيح. ولكن، هناك تفاوت بين لغة وأخرى، في البلاغة. فليست بلاغة اللغات البدائية القليلة الكلمات كبلاغة اللغات المتحضرة الغنية بالكلمات، لأن كثيراً من المشاعر الدقيقة، والمتدسّسة في الشعور المستسر^(٢) لا يجد المتكلم باللغة الفقيرة بالكلمات كلماتٍ تعبر عنها. وليس كذلك المتكلم باللغة الغنية بالكلمات.

- وليست اللغة المُعَرَّبَةُ كالعربية الفصحى واليونانية القديمة كهذه اللغات التي لا إعرابَ فيها. لأن اللغات المُعَرَّبَةَ.. يكمل الإعراب فيها - عن طريق الحركات - المعاني الدقيقة، وحالات المعاني هذه التي لا تستطيع أن تبرزها اللغات غير المعربة، وقد وضحنا ذلك عندما أوردنا مثلاً على الإيجاز المعجز في القرآن بسبب الحركات. وذلك في تعبير القرآن عن وصية سيدنا إبراهيم، وحفيده يعقوب - عليهما السلام - لأبنائهما^(٣).

(١) المقدمة، ١٠٧١ - ١٠٧٢..

(٢) الشعور المستسر هو ما ترجمه المترجمون العرب بكلمة (الاشعور) وهذه ترجمة غير دقيقة لكلمة (UN-CONSCIOUSNESS) فهذه الكلمة تعني (الشعور الداخلي أو الشعور المستسر أو - الشعور اللاواعي) أما اللاشعور - كما ترجموها - فلا يفرز شعوراً.

(٣) انظر: من هذا البحث - عنوان (المثال الثاني).

- ولأن الإعراب فى العربية الفصحى.. أوسع من الإعراب، وأشمل منه - فى اليونانية القديمة.. فإن العربية - أبلغ بنسبة، لعلها حوالى عشر بالمئة (١٠٪) من اليونانية القديمة.

- وكل ما يؤخذ على ابن خلدون - هنا - أنه لم يوظف رأيه هذا، لكى يدعو إلى التمسك بالفصحى لأنها أغنى من غيرها بسبب الحركات ولأنها إلى هذا.. لغة تفسير القرآن الكريم.

الخلاصة

- يتبين من كلام ابن خلدون السابق عن اللغات شيان:

..الأول أنه على وَعَى واضح أن كل اللغات.. تنطوى على قدرة بلاغية، مع تفاوت. أقول: وإنى أريد أن أعلل لذلك.. بأن الأصل فى أى استعمال لغوى أنه تعبير عن فكر - أو عن وجدان (عاطفة، ومشاعر، وأحاسيس). وفى مجال الوجدان تكون -البلاغة - أصلاً هى ما تفيضه المشاعر، والعاطفة والأحاسيس إلى اللسان وهذا الفيض هو مادة البلاغة أساساً ثم تكون الألفاظ الحاملة.. له، هى الصورة المنطوقة، أو المكتوبة. ويقدر غنى اللغة فى الألفاظ يكون تمثل هذا الفيض، فى صورة كلامية، فإذا كانت اللغة غنية بالألفاظ.. فإن الصورة على يدى الأديب الكبير تكون أقرب إلى الكمال. وإذا كانت اللغة فقيرة بالألفاظ جاءت الصورة معبرة تعبيراً محدوداً عن هذا الفيض، فكانت البلاغة أقل، ولكن.. لا يمكن أن تكون معدومة. وتزيد بلاغة الكلام - إذا كانت اللغة مُعَرَّبَةً.

- وهكذا.. فكل نص أدبى.. لا يخلو من بلاغة، ولكنها تتفاوت من لغة إلى أخرى - كما تتفاوت من أديب إلى آخر، فى اللغة الواحدة.

ابن خلدون فقد مؤشر الاتجاه:

..والشيء الثاني أن ابن خلدون.. لا يصل اللغة بمرجعية معينة شأن اللغة عنده شأن جوانب فكره كله - فلا يعنيه أن يدعوا إلى اللغة الفصحى باعتبارها لغة القرآن الكريم وباعتبارها أفصح اللغات وأبلغها بسبب حركات الإعراب وبسبب غناها بالألفاظ. وبهذا.. فابن خلدون كريان السفينة الماهر - بيد أنه فقد (مؤشر الاتجاهات)، فهو يدرك ما هو ضحل من البحر، وما هو عميق، وما هو ثائر، وما هو ساكن، وما هو ذو تيارات هوائية، أو - ذو دوامات، وما هو ليس بذى تيارات هوائية، ولا دوامات...

..بيد أن هذه المعرفة المستفيضة - عند الربان - لا توصله إلى «هدفه» لفقدانه مؤشر الاتجاهات. واني لأرى أن عدم تأثير فكره بمن جاؤوا بعده.. له أسباب عدة، ولكن ما يعيننا هنا منها هو شيئان..؛ الأول عدم تحديد «الاتجاه»^(١)، فالذين جاؤوا بعده وجدوا فكراً صحيحاً - غالباً - في النظر إلى الأمور، ولكنه فكر سُكوني لا يُوجَّه، ولا يعنيه أن يوجه.. فقرأته الأجيال، ثم.. تركته، لأنه لم يهدم إلى الدرب التي يأتي في نهايتها الهدف. إنه وضعهم داخل نفق مضاء، ولكن نهايته مسدودة، للأسف. وهو على نحو من الأنحاء، يشبه بعض

(١) يرى الدكتور محمد جابر الأنصاري أن مقدمة ابن خلدون لم تؤثر في اللاحقين، لأنها - في رأيه - جاءت في نهاية المشهد الثقافي العربي (مجلة - العربي - العدد - ٥٧٤ - السنة ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م) وهذا.. رأى لا يُطرح، ولكن ما قدمناه، آنفاً، رأى نراه أقوى، وإلا.. فلماذا لم تؤثر المقدمة، في الأجيال العربية، بعد مطلع النهضة، منذ مئتي سنة، حتى اليوم.

أصحاب العقول التحليلية في هذا العصر، فالناس لم يتابعوهم، لأن هؤلاء المحللين لم يكن هدفهم الوصول إلى الحقيقة، وإنما كان هدفهم إقناع الناس بما في أنفسهم من هوى وانحراف، فأطرحهم الناس. بيد أنه يفارقهم انه لا يكتب عن هوى.

- والثانى.. أن العقل العربى بتياراته المتعددة إلا مشاعل قليلة تجاهد، فلا تبدد الظلام - يفتقر إلى «التحليل» الذى برع فيه - أمثال ابن خلدون ت - ٨٠٨ - والجاحظ، قبله (ت ٢٥٥هـ) - وأبى حامد الغزالى (ت - ٥٠٥) - رحمهم الله - إلى حد ما، والفقهاء الأربعة الكبار: أبو حنيفة (ت - ١٥٠)، ومالك (ت - ١٧٩)، والشافعى (ت - ٢٠٤)، وأحمد بن حنبل (ت - ٢٤٦)، ثم.. جاء بعدهم، بقرون فقيهان عظيمان مشرقيان، هما: ابن تيمية (ت - ٧٢٥) وتلميذه ابن قيم الجوزية (ت - ٧٥١) وفقه أندلسى واحد هو الشاطبى (ت - ٧٧٩) وهؤلاء الفقهاء السبعة (رضى الله عنهم) كانوا أصحاب عقول تعتمد التحليل، إلى حد ما، وأقول: إلى حد ما لأن تحليلهم كان ينصب على الجزئيات، باعتبار أن الفتوى للمسائل اليومية هى مهم - ولم يكن تحليلهم يمتد، سطولياً، لكى ينتج نظريات... وأفر بهم إلى النظريات، بل الكليات - الشاطبى^(١).

- فإذا تجاوزت هؤلاء.. أعياك أن تجد لهم نظيراً. ولقلة العقول - التى تقوم على ملكة قادرة فى التحليل كثر الكذب فى أخبار سيرة الرسول العظيم - صلى الله عليه وسلم - وخاصة ما كان عن العهد

(١) فى كتابى [العصمتان] - سبق ذكره - تفصيل - للكليات فى الفقه والفكر - وللجزئيات - فى الجزء الثانى - من أجزاء الخمسة.

المكى وكثر الكذب فيما نسب إلى الرسول العظيم من حديث^(١)، حتى إذا استثنيت صحيح البخارى وصحيح مسلم وموطأ مالك - رضى الله تعالى عنهم - (وفى كل منها بعض الأحاديث المشكوك فى صحتها)^(٢) - ثم.. جمعت أحاديث كتب الأحاديث الأخرى، فى مجال واحد، نبيّن أن ما يقرب من خمسين بالمئة (٥٠٪) مشكوك فيه. وإذا بدأ لك أن فى هذا الكلام شيئاً من المبالغة.. فانظر فى مجلدات عشرة، كل مجلد فيه خمسمئة حديث (٥٠٠) باطلة أو موضوعة، أو ضعيفة، استخرجها الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى - رحمه الله - من كتب السنن الستة - وحدها-!.

ما ذاك إلا لافتقار العقل العربى إلى ملكة «التحليل» والله تعالى أعلم.

- إذن.. افتقار العقل العربى إلى التحليل - لم يُمكن من الإفادة القادرة من تحليل ابن خلدون.



(١) المرجع السابق - الجزء الخامس كله.

(٢) انظر: الدكتور صبحى الصالح، علوم الحديث ومصطلحه، ٣١٧، دمشق،

مطبعة جامعة دمشق، ١٩٥٩-١٣٧٩. العلماء انتقدوا مئة وعشرة أحاديث (١١٠) عند البخارى.